العش الخالى

عن الانكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

انتهى يوم العرس وسافرت آخر بنت كانت فى الأسرة مع عريسها الجديد ، وذهب آخر فريق من المدعوين وهم يضحكون ويمرحون فرحاً بالعرس، وأصبح المنزل هادئاً هدوءاً فوق العادة كأنه خال . فالأب والأم وحدهما فى منزلهما الكبير، وكان كل منهما يتجنب النظر إلى وجه الآخر وينظر إلى الموائد التى عليها بقايا الوليمة فمن زجاجات الشمبانيا إلى أطباق الفاكهة فأنواع الحلوى المختلفة

وقال الزوج لزوجته : « أليس بالمنزل غرفة لم يدخلها هؤلاء الضيوف ؟ » فقالت : « غرفة مكتبك »

قال : « تعالى نذهب إليها » ثم نظر إلى الساعة وقال : « جاء وقت العشاء فلنبدل ثيابنا للمائدة »

ثم أبدل وإياها ثيابهما ، وتذكر وهو خجلان أنه منذ سنوات كان ينتظر هذا اليوم يوم تتزوج بناته ويتركن له المنزل وأمهن معه

وقد كان يغار من بناته فقد كن يشغلنها عنه بعطالهن الكثيرة ، ولم يجرؤ على الاعتراف حتى أمام نفسه بغيرته منهن، وإنما كان يشعر بذلك ويخجل من شعوره ، ولكى يكفر عن هذا الشعور كان يقوم بواجباته نحو أبنائه خير قيام فلم يهمل قط واحداً من هذه الواجبات ولكنه كان دائماً يشعر بتلك الغيرة من كل شىء يحول بينه وبين زوجته وقد ظل كذلك إلى هذا اليوم. ففى العام السالف تزوجت بنتاه (كاتلين) و(كلير) وفى بداية هذا العام تزوجت جيرالد واليوم تزوجت الأخيرة وهى فرانسين ، وقد كان يحبهن جميعاً ولكنهن كن عقبة فى سبيله

واليوم لن تحدث بالمنزل الضجة التى كان يثيرها البنات وصواحبهن ، وكانت الأم تصرف كل وقتها فى خدمتهن ومرضاتهن ، وزوجها لا يثق بأنهن السبب فى ابتعادها عنه بل كان يخطر له فى أكثر الأحيان أنها تجعلهن ستاراً لتختفى وراءه منه ، وكانت تفتنه بجمالها ويزيده شغفاً بها اشتغالها عنه ، وقد تزوج منها ولكنه لم يأنس بزواجها فقد كانت دائماً فى حالة تشبه العزلة ، وكانت تهرب منه فلما رزق منها ببناته الأربع زاد ابتعادها عنه واستمرت حياتها الزوجية خمسة وعشرين عاماً وهو ينتظر، وكان ينظر إلى المرآة ويبتسم ابتسامة مرة حينما يذكر أنه تزوج منذ ربع قرن . وهو مع ذلك لا يتقدم إلى زوجته إلا كما يتقدم الشاب إلى فتاة صغيرة

وكان جميلاً قوى البنية، وكانت زوجته لا تزيد مع مرور الأيام إلا جمالاً . وكانت شجاعتها تزيد مع هذا الجمال

نظرت إليه الآن وقالت وهى تشير إلى زجاجات الخمر والأطباق التى على المائدة : « ما هذه الفوضى التى تركت لنا يا برانيتو »

وكان هذا الاسم هو الذى ينادى به فى الطفولة فنظر إليها وقال بهدوء : « إن اسمى هو جون»

فابتسمت أمام هذا التقريع الهادئ . وتناولت

معه طعام العشاء ؛ فقال وهو يتنهد تنهد الرضى :
« منذ كم سنة لم نتعش وحدنا ؟ » فقالت : « منذ سنوات طويلة . مسكينة فرانسين ! لقد كان التعب الشديد بادياً عليها »

قال : « ولكن من أجل المصادفات أنها تزوجت فى هذا التاريخ »

فقالت : « لماذا ؟ »

ونظرت إليه بعينيها الجميلتين الزرقاوين فأجاب :
« ألا تذكرين أن هذا هو تاريخ زواجنا ؟ »

قالت : « آه ! لقد تذكرت. إننى كنت ناسية »

فمض شفته وبدا عليه الغضب لنسيانها ذلك اليوم . ثم ملك روعه . وشعر بخيبه الأمل فى السعادة التى كان يرجوها لأن زوجته لا تشعر بمثل شعوره هذا. وذهبا إلى غرفة المكتب بعد العشاء وكانا يستعمان من الغرفة حركة الخدم وهم ينقلون ما على الموائد من الأطباق ، وكانت الزوجة واقفة بجانب النافذة تنظر فى الظلام إلى أعالى الأشجار وما عليها من أعشاش العصافير ، وإلى الممرات المظلمة فى الحديقة الجميلة التنسيق . وكان الزوج جالساً أمام مكتبه ، وقد أسند ذقنه بأصابعه

وكانت الزوجة تتذكر خلو المنزل من الموسيقى والغناء والضحك واللعب والحديث فقالت : « ألا يبدو المنزل كأنه غير مأهول ؟ »

فهز رأسه وعادت هى إلى الكلام فقالت :
« أظن جيرالد ستأتى فى العام المقبل »

كانت دائماً تفكر فى بناتها ، ولم يستطع حملها على التفكير فيه فشعر الآن بخيبة أمله ، لأنه حتى فى هذا الوقت لم يستطع الوصول إلى قلبها . ولكنه سكت فلم يجبها وعادت إلى الكلام فقالت : « وأظن كلير تستطيع أن تأتى شهراً فى الخريف ... مسكينة فرانسين ! إننى أرجو لها السعادة »

عاد إليه شعوره بالغيرة من بناته ولكنه كتمه كعادته وسكت، فقالت : « لقد سمعت من بنت عمى دوليس فى الأسبوع الماضى ـ ولم أستطع إخبارك إلا بعد انتهاء العرس ـ سمعت أنها تدير الآن ناديا للفتيات فى جنوب لوندرا »

تخفق قلب جون وقال : « ثم ماذا ؟ »

قالت : « وقد اقترحت علىّ أن أنضم إليها فهى فى أشد الحاجة للمساعدة . وقالت إننى سأكون منفردة هنا مستوحشة بسبب غيبة البنات وهى ترى أن أقيم معها وآتى إلى هنا يوماً فى الأسبوع . وأنت تتغيب عن المنزل طول النهار وفى إمكانك قضاء بقية الأسبوع فى غيبتى وحدك »

دارت الدنيا أمام عينيه وشعر بالذل . ولكن عزته المجروحة أبت إظهار ذله فقال : « افعلى ما ترينه »

قالت : « وإذا كنت تريدنى فإنى مستعدة لأداء واجبى »

فقال : « الواجب لا دخل له هنا »

قالت : « إننا سنقرر الرأى فى هذا الموضوع فيما بعد » . فرأى الزوج أن أى قرار خير من الشك وأن عليه أن يواجه الليلة ما لا بد من مواجهته فيما بعد . وهو يريدها ولكن على غير هذا الشرط فقال : « إننى أرى أن تقررى الرأى الآن »

فالتفتت ونظرت إليه فى صمت . ولكنه لم يطق أن ينظر إليها . وارتكن إلى ظهر الكرسى وكانت أمامه رزمة من الخطابات فأخذ يقلبها بصورة آلية ويقرأ العنوانات فأجابته : « سأذهب إلا إذا كنت فى حاجة إلىّ »

فكان رده المختصر : « لست فى حاجة إليك »

فتركت الغرفة فى الحال وتركته بين أنقاض أحلامه

وبعد أسبوع كان الزوج جالساً وحده . وكانت الزوجة قد ذهبت فى اليوم التالى للعرس إلى بنت عمها . وكانت نفس الزوج لا تزال متألمة من جرح عزتها . وشعر بالتعاسة لاعتقاده أنه كان من الحماقة أن يتركها تذهب دون أن يقاوم ، فهو يشعر بأن الحياة بدونها لا تطاق

وقف أمام النافذة التى وقفت أمامها منذ أسبوع وفكر فيها وفيما تعمله الآن . وكانت صورتها المكبرة على الحائط فقال فى نفسه : « ترى كيف حالتها الآن ؟ لعلها فى خطر ! »

وإنما أتى بهذه الكلمة إلى ذهنه أن أعصابه شديدة الاضطراب . ولم يكن يطيق النظر إلى صورتها

وكانت الغرفة مملوءة بصور أخرى لبنانه فنظر إلى تلك الصور وهو يبتسم ابتسامة مرة وقال : إنها انتصرت على طول الخط ، وإننى هزمت على طول الخط كذلك .

ونظر إلى الساعة ، وكان الليل قد انتصف وتشبثت بذهنه فكرة الخطر ، وفكر فى مقدار المسافة التى يقطعها إذا أراد زيارتها ، ولكنه شعر بأن ذهابه فى مثل هذه الساعة ليسأل عن صحتها لا يمكن أن يكون إلا حماقة . واختصم فى ذهنه العقل مع الغريزة فكانت الأخيرة هى الغالبة .

وكان الكل قد ناموا ، ولكن فتحه مثوى السيارة (الجراج) لا يستغرق إلا دقائق ، ثم يخرج السيارة ويوقظ السائق ، فيخبره بأنه ذاهب إلى جنوب لوندرا ، وأنه ليس فى حاجة إليه .

وفعل ذلك ، واخترقت سيارته الطرق ، وهو يزيد فى السرعة قبل فوات الوقت . ولم يكن قد زار من قبل ذلك النادى الذى تقيم فيه زوجته ولكنه كان يعرف عنوانه ، وكانت الغريزة وحدها هى التى تقوده الآن . ثم تلاشى حكمها ، وتحكم العقل فأسند ظهره إلى الكرسى ، وأخذ يضحك من حماقته ، وهو يخترق الشوارع الخالية ... إلى أين يذهب ؟ لا إلى شىء !

وأخذ يدق الجرس ... فلو رآه أحد فى الطرق الخالية لخاله سكران !

ووصل إلى النادى ، فنزل من السيارة ونظر إلى النوافذ ، فلم ير إلا دخاناً يتصاعد . وأصغى فسمع أصواتاً تدل على وجود حريق فى النادى ، فوضع يده فى فمه ، وصفر ليدعو الجنود ، وأخذ يحاول كسر النافذة بالآلات التى يصلح بها السيارة . وفى الوقت الذى كان يصيح فيه باستدعاء المطافئ استطاع الدخول من الفتحة التى أوجدها فى النافذة فجرح رأسه ويداه ، وكاد الدخان يخنقه فتراجع حتى تمكن من وضع منديل فى فمه ، ثم دخل مقتحماً وأخذ يصيح « يا هيلين ! يا هيلين ! » فخرجت إليه سيدة قال لها : « إن المكان يحترق ! أين زوجتى ؟ »

قالت : « إنها نائمة فى الطابق الأعلى »

ثم صعدت معه وصاح باسمها فخرجت ودهشت وقالت : « لماذا جئت يا جون ؟ »

فقال : « اسرعى بقليل من الماء »

فأسرعت وعند عودتها تذكر أنه لم يشرح لها سبب مجيئه فقال : « النار فى البناء ! لا ينبغى أن نضيع الوقت » ثم وضع منديلاً مبلولاً آخر حول فمها وبلّ المنديل الذى حول فمه ونزل معها فى وسط

الدخان المتصاعد، فلما رآها يكاد يغمى عليها حملها بين يديه ، وكانت الحرارة شديدة حتى كاد يغمى عليه أيضاً ، وخرج بها من النافذة

* * *

كانت الساعة الثالثة صباحاً عند ما عاد الزوجان إلى منزلهما ولم يتبادلا إلا كلمات قليلة وكانت الزوجة شديدة الشحوب وقالت : « لقد جئت إلى هنا يوم العطلة السالفة . ولكنك لم تجىء فيه »

قال : « نعم هـذا هو الواجب علىّ فى هذه الظروف »

قالت : « أى ظروف ؟ » فلم يجب . وقالت : « ما الذى جعلك تأتي فى هذه الساعة وكيف علمت ؟ »

قال : « لا أعلم ولكن كان مستولياً علىّ شعور غريب بأنك فى خطر فأتيت وأنا أعرف أن إطاعة هذا الشعور حماقة ، ولكنى لم أستطع منع نفسى . وما كنت أصدق القصص التى من هذا القبيل وكنت أسمع صوتاً يقول لى إن زوجتك المحبوبة فى خطر »

فسكتت مدة طويلة ثم قالت : « لم أكن أعلم أنك تحبنى إلى هذا الحد »

قال : « إننى رجل محتجز يا عزيزتى وقد كنت أعتقد أنك تدركين حبى لك . ولكننى لم أكن أستطيع الوصول إليك لأنك تهربين منى »

فقالت : « نعم لأنى خائفة »

قال : « خائفة ! ! من أى شىء ؟ »

فقالت : « خائفة من إظهار محبة أكبر من المنزلة التى وضعتنى فيها . إن لى عزة نفس ولذلك كنت أجعل بناتى ساتراً حتى لا ترانى »

قال : « وكيف عرفت المنزلة التى أشغلك فيها »

فقالت : « عرفتها من ذهابك بعد العشاء مباشرة إلى مكتبك كأنك لا تريد أن تكون معنا »

قال : « إننى كنت أفعل لأنى لا أريد أن أرى صواحب بناتى ولا تلك الضجة التى تحول بينى وبينك »

فقالت: « وكيف لا تسرعند ما أكلمك عن بناتنا؟ »

قال : « كيف عرفت ذلك ؟ »

فقالت : « إنك خير من يقوم بواجبات الأب . ولكنى عرفت ذلك من ملاحظتى ما يبدو على وجهك أثناء الحديث عنهن . وفى يوم الأربعاء الماضى أردت أن أمتحن شعورك وكان خطاب بنت عمى قد وصل إلى . ولكننى لم أعره عناية . وقد جربتك بالتكلم عنه وقلت فى نفسى إنك إذا سمحت بذهابى فإن ذلك سيسحق قلبى . وأنا لم أكن أريد الذهاب إلى بنت عمى »

فقطب حاجبيه وقال : « إنك تذكرت عزة نفسك ولم تتذكرى عزة نفسى وقولك دلنى على أنك تريدين الذهاب . وقد كنت فى غيابك تعساً للغاية » ثم وقف فجأة وقال : « لقد كنا مغفلين »

وتناول كفها بين كفيه وقال: « أظننى وجدت نفسك بعد هذه السنوات ولن أتركك تفلتين بعد الآن »

فقالت هامسة : « إننى أحبك كما لم أحب أحداً فى الوجود »

ثم وضع ثغره فوق شعرها الناعم اللامع وقال: « لك أن تتكلمى عن بناتنا الآن فطالما كنت تتخذينهن ساتراً بينى وبينك ، فإنى لا أغار منهن »

فابتسمت وقالت : « لقد أدركت نفسك أيها الطفل الكبير »